حافظ سند

«وكأننى ولدت ماركسيا. فقد عشت ماركسيا وسأبقى ماركسيا حتى أموت، فقد استقرت الماركسية فى قلبى جنبا لجنب مع الإسلام»
حافظ سند

نجار بسيط. هادئ. عندما رتب أبى موعداً معه حضر فى الموعد بدقة مبالغ فيها، تحدث معى بوقار وهدوء مع ارتجافة بسيطة فى يديه وصوته ربما بسبب الثمانين عاما التى يحملها على كتفيه، وربما لأنه كان يدلى بأعز ما يمتلك من ذكريات. وأستمع إليه. «بدأت نشاطى العام عضوا فى جمعية إسلامية اسمها "جمعية الاستقامة". المصادفة وحدها قادتنى إلى الاشتراكية. ففى ديسمبر ١٩٢١ تحديداً بعد نفى سعد زغلول إلى سيشل سافرت إلى الإسكندرية فى مهمة حكومية فقد كنت نجاراً بمجلس مديرية الدقهلية وكلفت، لأمانتى، أن أشترى أخشابا لمجلس المديرية. وأثناء سيرى فى الطريق تقدم إلى شخص وعرض على نشرة ثمنها خمسة مليمات». قرأ على صدر النشرة «الحزب الاشتراكى المصرى» وقرأ عبارات مضيئة.. الاشتراكية تضمن حقوق العمال والفلاحين. الاشتراكية تعنى المساواة. «قرأت النشرة وكأن طاقة القدر فتحت نفسها أمامى. وظللت طوال حياتى أقول لنفسى إننى اشتريت بالمليمات الخمسة حياة بأكملها». وجد حافظ سند مقر الحزب بالإسكندرية فى شارع نوبار. ودخل إليهم دون أن يستدعيه أحد. وجد هناك رفيقا اسمه إسكندر صاده، كان أخطر ما يشغل باله هو خوفه من الشائعات التى تتحدث عن الجفاء بين الحزب والدين. جادل إسكندر صاده طويلا واقتنع. وأتم اقتناعه بحوار مع شيخ دخل إلى المقر هو صفوان أبو الفتح الذى لقنه بآيات من القرآن الكريم والأحاديث أن الإسلام لا يتضاد مع الاشتراكية بل يدعو إليها. ويمضى حافظ سند: «وهكذا عشت اشتراكيا مخلصا للاشتراكية وماركسيا مخلصا للماركسية وسأبقى ماركسيا حتى أموت،

فقد استقرت الماركسية فى قلبى جنبا لجنب مع الإسلام».

وعاد حافظ سند إلى المنصورة شخصاً آخر. انغمس فى النضال الاشتراكى دون تردد. ضم إلى الحزب الكثيرين. أسهم فى جمع التبرعات لمقر الحزب ولتأسيس جمعية الإسعاف. كانت أنفاسه تعلو بحماس وهو يحكى عن شخص اسمه حسين عوضين، لم يكن اشتراكيا لكنه كان يحلم بتأسيس جمعية للإسعاف. وتحالف معه فى إنجاز هذه المهمة. وبعد فترة أصبح عوضين شخصا مهما فى المدينة، ومهما فى الحزب أيضاً. وتسرى دعوة الاشتراكية فى المنصورة مسرى الحياة. (هذا التعبير قاله حافظ سند ببساطة وتلقائية). وأكد لى أن عدد أعضاء الشعبة فى المدينة وصل إلى مائتين. قلت له: السعيد الصبرى. قال إنه: الرقم سبعين. فأجاب بحماس أذكر جيداً أن دفتر قيد العضوية امتلأ وأرسلنا للإسكندرية نطلب دفتراً آخر والدفتر به مائتا خانة.

وتشكل مجلس إدارى للشعبة من عشرة أشخاص تبقى فى الذاكرة منهم ستة أسماء لعلها كافية لتوضح طبيعة القيادة المحلية للحزب: شفيق باسيور (مهندس معمارى من أصل لبنانى) أحمد طرابية (مقاول) السعيد الصبرى (جزمجى) محمد أحمد عبد الجليل (موظف حسابات بالمجلس البلدى) الشيخ أحمد الموافى (مدرس لغة عربية فى مدرسة الفرير) عبد الحميد الطوبجى (من الأعيان) حافظ سند (نجار)، وإذ سألته عن الشيخ أحمد الموافى، فأجاب أنه كان رجل دين مستنيراً جداً ومتديناً جداً، وقد ضم إلى الحزب سبعة من رجال الدين كانوا يتناوبون فى إلقاء دروس دينية فى مقر الحزب عصر كل يوم.

تحدث حافظ سند بانبهار وكأنه يستعيد مجد أيام قديمة عن النشاط فى مقر الحزب: «الحزب كان خلية نحل. كان نادياً للعمال من حق أى عامل أن يدخله ويسهر فيه، وكانت هناك مدرسة لمحو الأمية ومدرسة للغة الفرنسية وفرقة موسيقى لأطفال أعضاء الحزب، وأفراح العمال كانت تضىء الحزب فى أغلب الأيام لأن الحزب قدم مقره مجانا لهم. ومع اتساع عضوية الحزب ونشاطه الجماهيرى قررت القيادة فى الإسكندرية تنظيم دورة تثقيف للكوادر، وحضر من الإسكندرية الشيخ صفوان أبو الفتح. ومصطفى أبو هرجة (سكرتير اتحاد العمال) وإسكندر صاده، والثلاثة كانوا أعضاء فى اللجنة المركزية».

ونمضى مع حافظ سند: «وعن طريق المعارف والأقارب بدأنا نتجه إلى الريف وأقمنا شعبة فى سمنود وأنا زرتها أكثر من مرة لأتابع النشاط فيها، وكنا على وشك أن نفتتح

شعبتين، واحدة فى السنبلاوين والأخرى بالمنزلة، ولكن الضربة البوليسية أتت».

ويمضى الحديث: «لم نكن مستعدين للضربة ولا مدربين على مواجهتها ولا حتى كيف نعبر عن أنفسنا أمام المحققين. وحتى نحن - قيادة الشعبة بالمنصورة - لم نكن مدربين على مواجهة مثل هذه الضربة. وبعد حملة القبض الأولى (١٧ مارس ١٩٢٣) صدرت الأوامر من الإسكندرية بإحراق كشوف العضوية وأن نستمر فى العمل العلنى، لكن ضربة ساحقة أخرى أتت وقبض على مجلس إدارة الشعبة بأكمله وصودر المقر. وبعد فترة طويلة من التحقيقات أفرج عنا. لكن مدير المديرية استدعى الموظفين بالحكومة، وطلب منا أن نكتب استنكاراً للشيوعية وللحزب. وقال لنا بوضوح: من لا يكتب سيفصل فوراً من عمله. والحقيقة أننا لم نكن مدربين على مثل هذه المواجهة ولا نعرف كيف نتصرف، فمحمد عبد الجليل قال أنا اشتراكى لكننى لست بلشفياً فثار المدير وقرر فصله، وكان الفصل من الحكومة عقابا صارما». ثم بدأ صوت حافظ سند يتهدج وهو يتحدث عما فعل: «أنا كتبت بخطى عبارة تقول: بما أن العمال فى مصر بين قوات ثلاث: الاستعمار الظالم والحكومة التى تربت فى أحضانه والقابضون على زمام الأحوال، فإن على العمال أن يكتفوا بحزب عمالى وأن يبتعدوا عن الشيوعية». ثم سالت دموعه غزيرة: «أرجوك اكتب، أنا نادم على هذه العبارة. أرجوك قل إننى كنت وسأبقى ماركسيا حتى أموت». وفى محاولة لإخراجه من هذه الأزمة سألته: وماذا فعل المدير بالورقة فقال: «هاج الباشا المدير وقال لى أنت بتتفلسف يا ابن.... ومزق الورقة وألقاها فى وجهى وقرر فصلى من العمل».